

الرفض والتغيير . والرفض موقفٌ ، والتغيير عملٌ معبرٌ عن الرفض .

وما أظن مجتمعاً صحيحاً يرحب بالرفض السلبي ، الذى لا يرضى بما هو قائمٌ ، ولا يساهم فى تصور ما ينبغى أن يكون . والذى يشيع القلق والضيق واليأس ويحاول أن يبرر بالسلبية عجزه عن المساهمة الإيجابية فى بناء الحياة .

أعرف كثيرين يمضون أوقاتاً طويلةً فى نقد ما هو قائمٌ ، كأنما هم فى سياحةٍ فكريةٍ ، يعودون بعدها إلى أرض الواقع ، ليتابعوا السياحة من جديدٍ . وكنت أحياناً أجلس إليهم صامتاً لأرى قسماً وجوههم وهم يتحمسون وينقدون ويختلفون . وكثيراً ما يجمعهم الطعام فيأكلون ثم ينصرفون ليعودوا بعد أيام إلى نفس الكلام . وهذا الرفض المسطح السلبي لا علاقة له بموضوع دراستنا .

وإنما الذى يستحق الوقوف هو الرفض الإيجابي الداعى إلى التغيير . ولو تغيير فكرة بفكرة .

وكنت أستمع أحياناً إلى خطباء مساجدنا وهم يكثرون من الحديث عن سلبيات المجتمع ، دون أن يحددوا للمستمعين خطأً إيجابياً للحياة ، حتى أصبح النقد أبرز سمات خطب الجمعة ، وأصبحت شجاعة الخطيب تقاس بمدى عنفه فى نقد الأجهزة الحاكمة . وينتهى الأمر أحياناً بتنحية الخطيب عن موقعه ، أو تعديله لأسلوبه ، إذا ما اتضحت له وجهة نظرٍ جديدة .

إن الرفض الداعى إلى تعديل السلوك إلى ما هو أفضل ، هو المرغوب فى حياتنا . ولو انتهى الحوار بين اثنين ، أو انتهت خطبة الجمعة ، بقضيةٍ إيجابيةٍ واحدةٍ ، ترفع من مستوى سلوك الفرد أو الجماعة ، لأدَّت الخطبةُ أو الحوارُ واجبها ، وآتت أكلها .

وهذه الإيجابية فى الرفض تتدرج من الجزئيات إلى الكليات ، وتنوع مع مجالات الحياة ، وترداد قيمتها كلما جاءت بعد دراسة وتمعن ، واحتوت مادةً صالحةً للتطبيق ، مقبولةً من قائلها وسامعها ، بمعنى :

أن يكون فيها ما يشجع السامع على محاولة التطبيق ، دون أن يشعر أن بينه وبينها فجوةٌ كبيرة .